ماكس نوردو

(٢)

وانحلال الامم

لولا الفكر الانساني لتعطل التاريخ لان التاريخ في حقيقة امره نسيج من الرغبات والبواعث والانفعالات تتعارض في خيوطه منتجات العقل بما فيه من تصور وادراك لتكوّن في مجموعها صورة ، هي التاريخ . لا تاريخ الملوك والدولات والحروب والثورات وحدها بل تاريخ الكون والفساد تاريخ الصخور والبحار والحيوان والنبات والانسان ونشوء صفاته العقلية والادبية وخصائصه الاخلاقية وعلى الجملة كل ما في الانسان من الظواهر التي نعرفها بالصفات النفسية. لان الفكر لاحد لهُ . ولكل شيء في الوجود مظهر فكري خاص

وكما ان الفكر منشأ التاريخ كذلك تجد ان التاريخ قياس الفكر . فلو انك استعرضت حوادث التاريخ منذ ابعد الازمان واستقرأت منهُ منتجه الفكر خلال العصور ، استطعت ان تعرف ان كان في الانسان نزعة الى التقدم والارتقاء أو كان فيه ميل الى الانحلال الاخلاقي والفساد

اما التاريخ قياس الفكر فيدلنا على ان الانسان متجه نحو الارتقاء ضارب في اصول التقدم . قِيسْ بين حالته في العصر الظرّاني الحديث من الوجهة الادبية او الصفات العقلية وبين حالته في عصور المدنيات البائدة كمدنية بابل وأشور ومصر فلا تلبث ان تتكون عندك فكرة صحيحة عما نريد ان نثبت من ارتقاء الانسان

لا ريبة في ان الارتقاء الانساني من حيث الآداب المدنية او الاخلاق وادراك المعنويات يدل على ان كفاءات العقل البشري قد تشكلت خلال كل عصر من العصور بمقتضى ما وصل اليه تكوينهُ العضوي من مدارج النشوء، والقياس بين حالة الانسان الهمجي والانسان في القرن العشرين لابين برهان على انهُ يرتقي وانهُ ضارب في اصول التقدم بقدم ثابتة وان كانت بطيئة الخطى

كذا اذا رجعت الى عصر التاريخ المعروف تجد ان الآداب والمطالب في عصر

التمدن اليوناني احط منها في عصر شارلمان مثلاً . ولا نقصد بالآداب والمطالب قواعد الفلسفة الغيبية الخيالية التي لم تقم الاَّ في عقول واضعيها بل نقصد بها كل ما لم يحكم العرف العام على انهُ خارج عن حدود الآداب

وانك لترى ان الشخصيات الكبيرة والعقول الفياضة بالمعاني الفاضلة اكثر ما تكون ظهوراً في آخر عصور الانحلال وبدء الانقلابات الاجتماعية . ولا حاجة لنا باثبات ذلك بشواهد من التاريخ لان اقل الواقفين على مبادىء التاريخ الاولية واكثرهم علماً بحقائقهِ يسلمون بذلك . لهذا نقضي بان الانسانية تتقدم وان تقدمها اشبه شيء بالتموجات الاثيرية ذوات التصاويع . غير انها تتجه بالمجموع نحو السمت العالي من الاخلاق . تلك سنَّة النشوء العام . وما كان للانسان ان يتفلت عن طوقها او يخرج عن قطر الطبيعة ذاتها

اما اذا اردنا ان نطبق هذه الحقيقة على فكرة « نوردو » في الانحلال الاخلاقي فانا ننتهي الى نتيجة واحدة . هي ان فكرة « نوردو » لا تصح الاَّ اذا طبقت على عصور الانحلال التي يعقبها الارتقاء المادي دائماً . فان الصورة التي ابرزها عقل « نوردو » تعبر احسن تعبير عن الحالات التي تقوم خلال عصور الفساد والانحلال

ولا جرم اننا في عصر انتقال انذرنا « نوردو » بسوآتهِ وابان لنا اصول الانحلال الضاربة في اخلاق ابنائهِ ولكنهُ انحلال سوف يعقب مظاهر الانقلاب التي ينتظر وقوعها فيهِ ارتقاء في الغايات تدلنا كل الشواهد القائمة من حولنا على انها تتجه نحو تقرير مبدإ الشعوبية ، الحب المتبادل والتعاون بين الشعوب ، وان عصرنا الحاضر انما تتحلل فيهِ اخلاق القومية والوطنية لتحقق الانسانية مرة اخرى في تاريخ ارتقائها مبدأً قام في عقول الفلاسفة منذ خمسة وعشرين قرناً من الزمان

***

نستطرد من ثمَّ الى الكلام في الصورة التي صوَّر بها « نوردو » عصور الانحلال متخذاً من الحالات التي قامت في عصرهِ امثالاً أبرز بها من الفساد الاخلاقي صورة ان قصرت على عصر خاص من العصور فانها ولا ريبة ادق صورة

جاد بها عقل مبتكر وخلق ثابت في زمان اخذ يتمخض فيهِ الماضي المنهوك متداعي عن جنين المستقبل المملوء حياة وقوة

علمتنا التجاريب ان اية فكرة انما تستمد صورتها وتكوينها من لغة الامة التي سبقت الى وضعها . فان المؤرخين في العادات واللغات انما يلجأون الى هذه القاعدة لانهم يبحثون عن الاصول الاشتقاقية في اللغات راجعين الى منشئها وأصلها متتبعين خطى نشوئها

اما اصطلاح « آخر زمن » ففرنسوي صرف . لان الحالة العقلية التي يعبر عنها هذا الاصطلاح وينطق بلسانها العامة قد نبتت في العقل الفرنسوي

وقد شاع هذا الاصطلاح فعمَّ استعمالهُ في كل اللغات الحية . حتى في اللغة العربية . واما الحالة العقلية التي تتخذ هذا الاصطلاح وسيلة لابراز ذاتيتها فذائعة في كل مكان غير انها لا تخرج في اكثر الحالات عن مجرد تقليد لعادة اجنبية

ولا يعوزنا الدليل على سخافة هذا الاصطلاح . فانهُ اصطلاح لا يولد الاَّ في عقل طفل او في مخيلة همجي تقوم في عقلهِ فكرة ان «القرن الزماني» الذي يعيش فيهِ عبارة عن كائن حي يولد كما تولد الحيوانات او الانسان . ويعيش متنقلاً في ادوار الحياة واطوارها متخطياً طور المراهقة الى الفتوة ثم الى الرجولة الكاملة ومن ثم الى الشيخوخة والانحلال ليموت بعد ان يعمر مائة عام وارحاً في اواخر ايامهِ تحت مبرحات الآلام

لهذا ترى ان الشعب الفرنسوي بدافع نفسي عقلي انما ينسب شيخوختهُ وكدورتهُ وانحلالهُ الاخلاقي الى قرن ما من الزمان المطلق غير المحدود فيقول المفكرون فيهِ « آخر زمن » واحرى بهم ان يقولوا « نهاية امة »

ومهما يكن من امر هذا الاصطلاح وما فيهِ من سخافة فان التكوين العقلي الذي يعبر عنهُ قائم قياماً فعلياً في عقول الكثيرين من ذوي الاثر في تربية الناشئين عقلياً واخلاقياً . لذلك ترى ان نزعة هذا العصر خليط من القلق المصحوب بحمى الفساد والخمول المعنت ومزيج من النبوءات المحزنة المملة المقرونة بأخبث مظاهر الكفران بالجميل وجحود الايدي المداة بالخير

ان الشعور السائد لشعور ينذر الناس باقتراب الفناء ويلقي في روعهم ان

الانقراض والزوال آخذان فيهم باعظم الاسباب فكأنهم من النفحة في الصور قاب قوسين او ادنى . لهذا تجد ان اصطلاح « آخر زمن » عبارة عن شكاة وتململ بل صرخة صامتة يبد انهُ اعتراف بليغ بعيد عن محتملات الجدل الكلامي والاطناب الاجوف والمعاذير الخرقاء

ولئن كانت المعتقدات القديمة قد وسمت الاعتقاد في فناء الآلهة وانقراضها فلقد غشيت العقول التي ابنتها هذا الزمان نوبات ازمتها الاعتقاد بان انحلال الامم امر واقع محتوم وان الشموس والسيارات إنما تمعن في سبيل الاضمحلال وان النوع الانساني وما أبدع العقل من طريف النظم والمنتجات إنما يسير الى الفناء مسايراً في ذلك خطوات كون ضارب في سبيل الفساد

ليست هذه باول مرة استولى فيها على الناس ذعر الخوف من فساد الكون وفناء العالم . فان فكرة كهذه قد استملكت من قبل مشاعر النصارى في اوربا إبان القرن العاشر . غير ان هناك فرقاً كائناً بين حيرةٍ منشأها الاعتقاد وقلق مرجعهُ الفساد

ان الحالة النفسية التي يخلقها الاعتقاد في « آخر زمن » في الجماعات اشبه شيء بحالة شخص أيأسهُ المرض وأقنطهُ السقام فقام في ذهنهِ انهُ يتقدم ببطء ولكن الى الموت في وسط طبيعة أبدية الحياة فائضة بكل معاني الجمال الخالد

إن في اصطلاح « آخر زمن » لقسطاً كافياً من الغموض يهيئهُ تمام التهيئة لكي ينقل من المعنى ما يعوز تيار الافكار السائدة من لبس وابهام. شأنه في ذلك شأن كلمات « الحرية » و « الغاية » و « الارتقاء » و « المساواة » . فان هذه الكلمات إن خيل الينا انها تتضمن فكرات وتصورات فانها ليست في الواقع الاَّ أصواتاً جوفاء . كذلك تجد ان اصطلاح « آخر زمن » ليس بشيء في ذاتهِ وأن ما فيهِ من الشأن والخطر إنما يقاس بمقتضى ما للآخذين بهِ من كفاءة عقلية

***

لا يدلك على المعنى الحقيقي الذي ينقلهُ اصطلاح «آخر زمن» مثل وقوفك على حوادث أطلق عليها هذا الاصطلاح! ولقد استجمع لذلك «نوردو» امثالاً اقتطفها من المجلات الفرنسوية التي تتبع قراءتها ناهين كاملين . واليك بعضها

(١) قسيس يحاكم لانهُ نال بالسبب من راعي الكنيسة التام. تنتهي الاجرآت فينتهز الرهبان اخوانهُ هذه الفرصة ليوزعوا على مخبري الجرائد في المحكمة دفاعاً أعد المتهم منهُ نسخاً من قبل . ولما ان يلزم بغرامة يستدر اكف الناس من طريق الاكتتاب فيجمع عشرة اضعاف الغرامة . ثم يطبع كتاباً يبرر بهِ عملهُ فيحشوهُ بكل ما وصل اليهِ من عبارات التأييد . ومن ثم يطوف انحاء البلاد عارضاً نفسه في كل كنيسة امام جمهور أخذتهُ الرغبة في مشاهدة رجل الساعة ووحيد الدهر فلا تفوتهُ فرصة الطواف عليهم بصحاف الاستجداء . فهو قسيس آخر زمن

(٢) ارسلت جثة السفاح « برانزيني » Pranzini بعد تنفيذ حكم الاعدام لتشرّح . فيقطع رئيس البوليس السري جزءاً كبيراً من جلد الرجل لانهُ كان موشوماً ليصنع منهُ علباً للسكائر ومحافظاً لبطاقات الزيارة لهُ ولبعض اصحابهِ . فهو موظف آخر زمن

(٣) رجل اميركي يحتفل بزفافهِ في معمل غاز ثم يستقل وعروسهُ « بالوناً » اعد من قبل ثم يبدأ شهر العسل بين السحاب . فهذا عرس آخر زمن

(٤) ملحق في السفارة الصينية ينشر تحت اسمهِ مؤلفات ذات قيمة في اللغة الفرنسوية . ويفاوض المصارف المالية في شأن قروض عظيمة لحكومتهِ . ويأخذ من المصارف مقادير كبيرة من النقود لنفسهِ قبل ان يتم العقد . ثم يظهر من بعد ذلك ان الكتب من تأليف سكرتيرهِ الفرنسوي وانهُ خدع المصارف المالية . فهو سياسي آخر زمن

(٥) فتاتان من فتيات الاسر الكبيرة صديقتان في التعليم جلستا تتحدثان فتنهد إحداهما تنهدة عميقة . فتسألها الاخرى « ما السبب » . فتجيب — « انني أحب راؤول وراؤول يحبني . فتقول رفيقتها » انهُ شاب جميل حسن البزة والصورة . ولماذا تشعرين بحزن » — « نعم لانهُ لا يملك شيئاً . وليس بشيء . وأبواي يريدان أن يزوجاني من البارون . وهو رجل بادن أصلع الرأس قبيح الوجه » فتقول لها رفيقتها — «حسن . تزوجي من البارون بدون لغط ثم عرفيهِ براؤول » . فهن فتيات آخر زمن

***

أمثال هذه الحالات تدلنا كيف يفهم هذا الاصطلاح في مهد نشأتهِ . وتلك

امثال من الخبائث المخبوءة وراءهُ . وهي تدل في اوسع معانيها على التحرر من النظامات التقليدية الموروثة تخلصاً عملياً تامًّا . اما التحرر من آثار التقاليد فلا يقوم لهُ من معنى في اذهان الآخذين بآداب « آخر زمن » أبعد من اطلاق الاهواء من اسار العقل والاخلاق لتمضي جامحة في الطريق التي يسلم بها الى الناحية الحيوانية في الانسان

من الآخذين بوحي «آخر زمن» أنانيون قست قلوبهم وفتنتهم موحيات عقول نكث فتلها اسفاف النزعات القائمة من حولهم فهم لا يقيمون لاخوانهم في الانسانية وزناً الاَّ بمقدار ما يعود عليهم من نفع في مشاركتهم الحياة ويطأون باقدامهم كل الحوائل الادبية القائمة بين النفس الانسانية وبين التطوح مع قواسر المطامع الاشعبية وحب الزخارف الدنيا . ومنهم مزدرون بالدنيا متهاونون بالحياة لا يأتفون من تسود النزعات السفلية التي إن عجزوا عن ردعها بوازع من الفضائل اخفوها وراء ستار من الختل والمخادعة والرياء . ومنهم مؤمنون بالدين . غير انهم يحاولون التخلص من المذاهب الفضلى فيرتطمون في التسفل الى انكار ما بعد الحسيات آخذين بما توحي اليهم فلسفة الظواهر الكونية . ومنهم حسيون يجردون الفن عن معاني المثالية والخيال فيخرج من يدهم هيكلاً مواتاً لا يحدث من روعة ولا يبعث من انفعال . ذلك في حين ان الكل مجمعون على ضرورة التخلص من النظام الموضوع الثابت الدعائم . وهو في الواقع نظام لا ينكر مفكر انهُ قد ارضى المنطق آلافاً من السنين ولم يحل بين الفن الناضج وبين إبراز صور اجتماعية اخلاقية فيها كثير من بواعث الجمال

يقول « نوردو » إن السواد الاعظم من الطبقات الوسطى والطبقات الدنيا في المجتمع ليسوا « بآخر زمن » بمقتضى مركزهم الاجتماعي . إذن « فنوردو » يعتقد ان انحلال الصورة الدنية الحاضرة قد بدأ من قمة الجمعية . ولا ريبة في ان الانحلال اذا بدأ بالطبقات المنتقاة كان اشنع صور الانحلال التي شهدها التاريخ الانساني

اسماعيل مظهر